العدد 21A 2 تموز 2026
المجلة العراقية للبحوث الانسانية والاجتماعية والعلمية
NO.21A2 Jul.2026 Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN2790-1254

الأدعية في كتاب عيون أخبار الرضا للشيخ الصدوق (ت381هـ) دراسة في ضوء الأنساق الثقافية

فاطمه عبدالرزاق سعيد سلمان
م.د أحمد عبدالله عذيب
fatima.abd2403@ircoedu.uobaghdad.edu.iq
ahmed.abd@ircoedu.uobaghdad.edu.iq
جامعة بغداد/ كلية التربية (ابن رشد) للعلوم الإنسانية

الملخص:
يُعَدُّ كتاب عُيون أخبار الرضا (عليه السلام) للشيخِ الصدوق (قدس سره) من أبرز المصادر التي وثّقَتْ حياة الإمام الرضا والأئمة السابقينَ له (عليهم السلام) بروايات له قامَ باختيارها الشيخ الصدوق (قدس سره) وضمّها في كتابِه، فاشتملَ الكتاب على أدعيةٍ، مناظرات، شعر، وصايا، رسائل وأخبار مُتفرقة، وبهذا يكون الكتاب مِنْ أثرى الكتب وأغناها في التنوعِ الأدبيّ ممّا جعله محل اهتمام الباحثينَ في دراساتٍ عدّة، ويدْرسُ هذا البحث الأدعية متجاوزًا البلاغة التقليدية ليتعمق في الأنساقِ الثقافية المُضمرة خلف الرداء البلاغي بغية الإجابة على السؤال: كيف استطاع الدعاء في كتاب عيون أخبار الرضا (عليه السلام) أنْ يتحول من وظيفتِهِ التعبدية إلى نسقٍ استغاثي يقوم بامتصاص الأزمات التي عاشها الأئمة (عليهم السلام) ويُعيد تفريغها لاستعادةِ التوازن النفسي في مواجهةِ الخَصْم.
الكلمات المفتاحية: الدعاء، الأنساق الثقافية، عيون أخبار الرضا

A)Akhbar al-Rida* by Sheikh al-Saduq (d. 381 AH Supplications in the book *Uyun patterns study in light of cultural

Fatima Abdul Razzaq saeed salmam
fatima.abd2403@ircoedu.uobaghdad.edu.iq
Instructor Dr. Ahmed Abdullah Odhaib
ahmed.abd@ircoedu.uobaghdad.edu.iq
University of Baghdad / College of Education (Ibn Rushd) for Humanities / Department of Arabic Language

Abstract:
The book "Uyun Akhbar al-Rida (peace be upon him)" by Sheikh al-Saduq (may God sanctify his soul) is considered one of the most prominent sources that documented the life of Imam al-Rida and the Imams who preceded him (peace be upon them) with narrations that Sheikh al-Saduq (may God sanctify his soul) selected and included in his book.
The book included prayers, debates, poetry, testaments, letters and miscellaneous news, and thus the book is one of the richest and most diverse books in literary variety ,which made it the focus of attention for researchers in several studies.
This research studies the supplications, going beyond traditional rhetoric to delve into the implicit cultural patterns behind the rhetorical cloak, in order to answer the question :How was the supplication in the book "Uyun Akhbar al-Rida" (peace be upon him (able to transform from its devotional function into a system of supplication that absorbs the crises experienced by the Imams (peace be upon them) and re-empties them to restore psychological balance in the face of the adversary?
Keywords :supplication, cultural formats ,eyes of news of satisfaction

مقدمة: الأنساق الثقافية ـ التعريف بالكتاب والمؤلف

تتجاوزُ قراءة الدعاء ـ في ضوء الأنساق الثقافية ـ الأبعاد التعبدية، فهي تسعى إلى كشف تحوّل الدعاء إلى تصويرٍ حقيقيّ لمظلومية أهل البيت (عليهم السلام) إزاء الحكم العباسي هذا من جهة، ومن جهة أخرى تسعى إلى تصوير ملامح الوعي الجمعي وتوجهات الهوية لدى الشيخ الصدوق (قدس سره) عَبْر توظيفها بمدونتِهِ.

والأنساق الثقافية بحسب الغذامي، هي "أنساقٌ تاريخية أزلية و راسخة ولها الغلبة دائمًا، وعلاقتها هي اندفاع الجمهور إلى استهلاك المنتوج الثقافي المنطوي على هذا النوع من الأنساق". (الغذامي، 2005م، صفحة79). ويُعرّف أيضًا، بأنّه " مواضعة اجتماعية، دينية، أخلاقية، استيقية، تفرضها في لحظةٍ معينة من تطورها الوضعية الاجتماعية والتي يَقْبَلها ضمنيًا المؤلِّف وجمهوره". (كيليطو، 2001م، صفحة 8) ويكمن ظهوره في "صورة جملة من السلوكيات الجماعية والثقافة الشفاهية" (يوسف، 2010م، صفحة 148).

و النسقُ نوعانِ، فكلّ " خطاب يحملُ نسقينِ،أحدهما واعٍ (ظاهر)، والآخر مضمر" (الغذامي، وآخرون، 2004م، صفحة 27) أما الظاهر فهو" البعد الثقافي المُعلَن في النصِّ المُحرّك لَه، والذي تدورُ حوله عجلاته" (الشمس، 2021م، صفحة 33)، كمّا يُعرَّفُ بأنّه: "مفهوم يستخدم للإشارة إلى المعاني والدلالات التي يكتسبها الأثر الأدبي من القيم التي يمثلها داخل المجموع والسياق اللغوي المباشر". (حجازي، 2001م، صفحة 38) وهذا ينطبق على كافة النصوص و الخطابات ـ الأدبية وغير الأدبية- التي تظهر معنى وتضمر معنى آخر، تغطيّه الأساليب الجمالية المعتمدة من قبل الكاتب، فلا تُكتشف إلّا من خلال القراءة الفاحصة، و الدقيقة التي يمارسها الناقد الثقافي بحثًا عن المضمر خلف ستار الجماليّ.

أما النسق المضمر، فسينال ما لم ينله الظاهر؛ لأنه لبّ الدراسة وما نسعى لكشفه في الكتاب، والمضمر هو "أن نوحي لأحد الأشخاص بالتفكير في أمرٍ ما" (أوريكيوني، 2008م، صفحة 40) فهو" المؤلّف المخفي المتحكم في صناعة النص و المترسب في ذاكرة المنشئ وتكوينه الثقافي، ولولاه لَمَا وجِدَ النص وبعد أن يوجد من الطبيعي أن يتم تشذيره بالجمالي، فيكون نصًا متماسكًا محكمًا يراعي القيم الاستعمالية في السياق" (الشمس، 2021م، صفحة 59) وهذا يعني أنّ النسق المضمر مخالف لما هو ظاهر ومكشوف، ويعتمد الإيحاء والتخفي، وتحدد أوركيوني المضمر بأنّه "كل المعلومات التي يمكن للكلام أن يحتويها، ولكن تحقيقها في الواقع يبقى رهن خصوصيات سياق الحديث". (بلخير، 2013م، صفحة 68).

وقد أولى الغذاميّ النسق المضمر المركزية في مشروعِهِ النقديّ، و حددَ النسقَ من خلال وظيفته وليس وجوده المجرد، وهذه الوظيفة تتحدد بوجودِ نسقينِ أو نظامينِ متعارضينِ من أنظمةِ الخطابِ، ذلك الذي تشتمل عليه كل الخطابات، سواء كانت أدبية أم غير أدبية، أما الخطاب الأدبي فهو أخطر؛ لأنه مُتلبس و متخفي بالجمالي/البلاغي. (الغذامي، وآخرون، 2004م، الصفحات 31 - 32)

ويعرّفه بقولِهِ: "هو كلّ دلالة نسقية مختبئة تحت غطاء الجمالي ومتوسلة بهذا الغطاء لتغرس ماهو غير جمالي في الثقافة". (الغذامي، وآخرون، 2004م، صفحة 33) فهو خارج محيط الوعي متسربًا بشكل غير ملحوظ من داخل النفس و يكون مناقضًا للنص الظاهر

كتاب عيون أخبار الرضا (عليه السلام): أهميته، منزلة مؤلِفه.

يُعَد كتاب عيون أخبار الرضا من أهم المصادر الحديثية، ويحتل مكانة خاصة في التراثِ الشيعيّ؛ كونه يُرّكز على سيرةِ حياة الإمام الرضا (عليه السلام)، ويلتفت الشيخ الصدوق (قدس سره) في كتابِهِ إلى "تفصيلات عن الإمام الرضا و نسبه و ذكر إمامته و النص عليه ثم ذكر ماجاء في الأئمة الإثني عشر، ثم يذكر أخبار موسى بن جعفر مع الرشيد ،كما يذكر أخبار الرضا مع المتكلمينَ و أهل الملل و ذكر رأيه في الإمامة و العصمة و علامات الإمام ووصف الإمامة ، ثم ذكر ولاية الرضا لعهد المأمون و رأى الإمامية في ذلك ثم وفاة الرضا و أخبارًا أخرى متفرقة، والكتاب أحسن مصدر لدراسة تأريخ الرضا (عليه السلام)" (داود، 1968م، صفحة 30) كما يُعَد مِنْ كتب الأصول (المجلسي، دون تاريخ، صفحة 1/8) المُعتمدة التي أخذت منها أهم الموسوعات الإسلامية.

مؤلف الكتاب:

يُعَدُّ الشيخ الصدوق (قدس سره) "محدث، حافظ، مفسر، أصولي، من كبار فقهاء الشيعة الإمامية. لم يرَ في القميين مثله، نزل بالري، وارتفع شأنه في خراسان، وورد بغداد وحدث بها عن أبيه، وتوفي ودفن بالري" (نويهض، 1983م، صفحة 577/2) من أبرز علماء الإمامية في القَرن الرابع الهجري، وواحدًا من أهم المحدّثينَ و المصنّفينَ في التراثِ الشيعيّ، ولِدَ في مدينةِ قم، وتوفي في مدينةِ الرَّي سنة 381هـ، بَعدَ أنْ تجاوزَ السبعين من عمرِهِ، ودُفن بالقربِ من مَرْقَدِ عبد العظيم الحَسنيّ في ضواحي طهران، نَشَأَ في قم وتلقّى تعليمَهُ في معاهدِها على أيدي شيوخها، حتى تخرّج فيها، ثم انتقلَ

إلى الريّ وأقامَ بها، وأثناء مسيرته العلمية زارَ مشهد الإمام الرضا (عليه السلام) سنة 352هـ، ومرَّ بمدينة نيسابور، فاستمع إلى علمائها، كما زارَ مدينة مَرو الروذ، وفي السنةِ نفسها (352هـ) انتقلَ إلى بغدادَ، ثم زارَ الكوفة سنة 354هـ، وأدى فريضةَ الحج في مكة المكرمة، كما ارتحلَ إلى مدينةِ همذان، وزارَ مشهد الإمام الرضا (عليه السلام) مرتين أخريين، سنة 367هـ وسنة 368هـ، ثم رحلَ بعد ذلك إلى ما وراء النهر. (الأمين، دون تاريخ، صفحة 25/10)

المطلب الأول: الدعاء وأهميته.

أما الدعاء في معناه الاصطحلاحي، هو "استِدْعاءُ العبْدِ رَبَّهُ ـ عزَّوجل ـ العناية واستمداده إياه المعونة وحقيقتُهُ: إظهارُ الافتقارِ إليه، والتبرُّؤ من الحولِ والقوّة، وهوَ سِمَةُ العبودية، واستشعارُ الذِّلة البشرية، وفيه معنى الثناء على اللهِ عزّوجل وإضافةُ الجود والكرم إليه". (الحافظ، 1992م، صفحة 4).

ويُعرّف أيضًا بأنّه : "الصدى أو الإنعكاس الحقيقي لمشاعر الحاجة والعجز التي تغمر الإنسان، وهذه الحاجة هي التي تُساعد الإنسان على تحديد رغباته ومطالبه الذاتية، وترجمتها على شكلِ دعاء...فحقيقة الدعاء تتجلى إذن في الكشف عن جوهر الحاجات والرغبات الفطرية والكامنة في ذات الإنسان ـ وترجمتها لفظيًا ـ أي النطق بها على صورةِ دعاء". (دَسْتغيب، دون تاريخ، صفحة 16)

ويُلْتَمس فَضْل الدعاء ورفْعَة مَنْزلته من الآيات الكريمة والأحاديث التي رويت عن رسول الله (ﷺ) .

ومن تلك الآيات المُباركة:

قالَ تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾. (البقرة: 186).

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر: 60).

ومن آيات الدعاء، قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾. (آل عمران: 8).

وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (آل عمران: 147).

وممّا وَرَدَ عن رسولِ الله في فَضلِ الدعاء:

قوله: "إنّ الدعاء هو العبادة". (حنبل، 2001م، صفحة 30/ 298)

وقوله (ﷺ): " الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين". (المجلسي، دون تاريخ، صفحة 93/ 288)

وتكمن أهمية الدعاء ـ أيضًا ـ بوصفِهِ تفريغًا للأزمات وترويحًا عَن النفس؛ فعندما كانوا الأئمة (عليهم السلام) مُراقبينَ مِنْ قِبَل السلطة العباسية قاموا بتوظيف الدعاء لتمريرِ معاناتهم السياسية والعقدية تحت غطاءٍ دينيّ، إذ يرى فوكو أنّ "إنتاج الخطاب في كل مجتمع، هو في نفس الوقت إنتاج مُراقب، ومنتقى، ومنظم، ومعاد توزيعه من خلال عدد من الإجراءات التي يكون دورها الحدّ من سلطاتِهِ ومخاطره، والتحكم في حدوثه... إنّنا نعرف جيدًا أنّه ليس لدينا الحقّ في أن نقول كل شيء وأننا لا يمكن أن نتحدث عن كل شيء في كل ظرف ونعرف أخيرًا ألا أحد يمكنه أن يتحدث عن أي شيء كان" (فوكو، دون تاريخ، صفحة 4).

وفي ظلِّ ظروف المنع وجدوا الأئمة (عليهم السلام) أنّ الادعية ملجأً، فقاموا بممارسته كطقسٍ ديني، إذ إنّ "الطقوس تُعين الحركات والسلوكيات والظروف ... التي يجب أنْ ترافق الخطاب؛ إنّها تُعين أخيرًا الفعالية المُفترضة أو المفروضة للأقوال، ومفعولها على أولئك الذين تتوجه إليهم وحدود قيمتها الإرغامية" (فوكو، دون تاريخ، صفحة 21) فحتى أن انطلقَتْ الطقوس الدينية ـ الأدعية ـ من وضعٍ مأزوم و مجتمع مُراقَب، فهي تحتفظُ بسلطتِها عليه (دوركهايم، 2019م، صفحة 521)، طالما كان الإمام (عليه السلام) يمتلك السلطة الروحية التي تفتقر إليها السلطة.

وفي الوقت الذي يرى فيه دوركهايم أنّ المجتمعات البدائية تقوم بواجبات طقوسية مختلفة ولعل أخفّها ثقلًا العويل والبكاء لتفريغ الأزمة (دوركهايم، 2019م، صفحة 526)، تؤكد الأدعية الواردة عن القيادة الروحية المتمثلة بالأئمة (عليهم السلام) أنّها قد ترفعَتْ عن تلك الطقوس وحوّلتها من ممارساتٍ بدائية إلى خطابات نصيّة تتمثل في النسق الاستغاثي في الأدعية، وبهذا المعنى أصبح الدعاء طقسًا بديلًا يمتصّ قمع السلطة ويحمي الهوية من التشتت في الوقت ذاته.

وممّا لا شكّ فيه أنّ سلطة الأئمة (عليهم السلام) هي نابعة من اعتراف المجتمع نفسه، الأمر الذي يؤكده بيير بورديو في دراسته إذ أنّ كل سلطة رمزية "هي سلطة لا مرئية ولا يمكن أن تمارس إلا بتواطؤ أولئك الذين يأبونَ الاعتراف بأنّهم يخضعونَ لهل بل ويمارسونها". (بورديو، 2017م، صفحة 48)

فلجوء الأئمة (عليهم السلام) إلى الدعاء هو ليس خروجًا من الواقع المُعاش، بل مقاومة ضد السلطة العباسية، فبما أنّ السلطة تمتلك القوة المادية بفرضِ قمعها، فإنّ النسق الاستغاثي يفرض حقيقةً بديلة عن العالم؛ إذ يقوم بكشف زيف

السلطة ليؤكد مظلومية أهل البيت (عليهم السلام)، حيث يستعيد المظلوم توازنه بالانتصار في ساحةِ المُقدّس تعويضًا عن قمعِهم في ساحةِ السياسة.

وبناءً على كل ماسبق، يُمكن تعريف النسق الاستغاثي بأنّه توظيف أسلوب يُتخذ فيه التضرع طابعًا احتجاجيًا مُضمرًا، وذلك بلجوءِ الأئمة (عليهم السلام) إلى استعمالِ صيغة الدعاء كوسيلةِ مقاومة سلمية لدفع المنع والقمع السياسي، بحيث يتحوّل النص من مناجاة روحية إلى فعل يهدف إلى تقويضِ شرعيةِ السلطة وإعادة تشكيل الوعي الجمعي للمظلومينَ عَبْرَ توظيف سلطة بديلة.

المطلب الثاني: الأدعية في كتاب عيون أخبار الرضا

ومِنْ أدعية الإمام الرضا (عليه السلام) عند إقباله على ولاية العهد مُكرهًا، قال: **"اللَّهُمَّ إِنَّكَ قَدْ نَهَيْتَنِي عَنِ الْإِلْقَاءِ بِيَدِي إِلَى التَّهْلُكَةِ، وَقَدْ أُكْرِهْتُ وَاضْطُرِرْتُ كَمَا أَشْرَفْتُ مِنْ قِبَلِ عَبْدِ اللهِ الْمَأْمُونِ عَلَى الْقَتْلِ مَتَى لَمْ أَقْبَلْ وَلَايَةَ عَهْدِهِ، وَقَدْ أُكْرِهْتُ وَ اضْطُرِرْتُ كَمَا اضْطُرَّ يُوسُفُ وَ دَانِيَالُ (عليهم السلام) إِذْ قَبِلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الْوَلَايَةَ مِنْ طَاغِيَةِ زَمَانِهِ، اَللَّهُمَّ لَا عَهْدَ إِلَّا عَهْدُكَ، وَلَا وِلَايَةَ لِي إِلَّا مِنْ قِبَلِكَ، فَوَفِّقْنِي لِإِقَامَةِ دِينِكَ وَإِحْيَاءِ سُنَّةِ نَبِيِّكَ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْمَوْلَى وَ النَّصِيرُ، وَ نِعْمَ الْمَوْلَى أَنْتَ وَنِعْمَ النَّصِيرُ".** (الصدوق، دون تاريخ، صفحة 61/1)

لا يمكن قراءة الدعاء ـ في حقل النقد الثقافي ـ بوصفه مناجاة من عبدٍ لربه، بل هو وثيقة محمّلة بالحقائق السياسية والاجتماعية التي واجهها أئمة آل البيت (عليهم السلام) من السلطات المتعاقبة مُغلفة برداء التضرّع إلى الخالق؛ إذ أُنتج في قلب الصدام الذي قام بين السلطة العباسية والسلطة الرمزية المُتمثلة بالإمام (عليه السلام)، ثم قامَ الشيخ الصدوق (قده) بإعادة إنتاج النص في القَرن الرابع لغايات تخدم عصره.

ففي الوقت الذي يقبل الإمام (عليه السلام) ولاية العهد، ينفيها في فضائِهِ مع الله تعالى، محولًا بذلك ولاية العهد من ميثاقٍ غليظ مع السلطة إلى إكراهٍ مُجرّد من قيمتِهِ، وذلك يتطابق مع قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾. (النحل: 106)

يكشف النصّ أنّ مُراد الخليفة في تعيينه للإمام الرضا (عليه السلام) وليًا للعهدِ ليس تقربًا أو تحببًا، أو ردّ الحقوق لأصحابها، بل لاستعمال سلطة الإمام (عليه السلام) الروحية في حلّ الأزمات الراهنة، ودعاء الإمام (عليه السلام) يكشف وعيه بنوايا الخليفة تجاهه، فهو لا يريد تدنيس الإمامة بدخوله بلاط السلطة، وبذلك تكون حجة السلطة تجاه الخصم المعارض إنّ إمامهم شريكًا في السلطة التي يعترضون عليها، كما إنّ استدعاءَ الإمام (عليه السلام) الحوادث التاريخية يكشف عن تفريغ الأزمة من موضعها الإكراهي وجعلها جزءًا من أزمةِ النبوة التاريخية، وقوله (عليه السلام): " فَوَفِّقْنِي لِإِقَامَةِ دِينِكَ وَإِحْيَاءِ سُنَّةِ نَبِيِّكَ " (الصدوق، دون تاريخ، صفحة 61/1)، هو ما يتطابق مع السلطة الرمزية عند بيير بورديو، فالإمام (عليه السلام) يقوم بتوضيح وظيفته ضمنًا داخل الدولة العباسية بوصفه مُحيي الدين لا وليًا للعهد، طلب الرشيد حضور الإمام الكاظم (عليه السلام) وهو ينوي له شرًا، فدعا بدعاء جدّه الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) وهو دعاء كفاية البلاء **"اللَّهُمَّ بِكَ أُسَاوِرُ، وَبِكَ أُحَاوِلُ وَبِكَ أُحَاوِرُ، وَبِكَ أَصُولُ وَبِكَ أَنْتَصِرُ، وَبِكَ أَمُوتُ وَبِكَ أَحْيَا، أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ خَلَقْتَنِي وَرَزَقْتَنِي وَسَتَرْتَنِي، وعَنِ الْعِبَادِ بِلُطفِ مَا خَوَلْتَنِي أَغْنَيْتَنِي، وإِذَا هَوِيتُ رَدَدْتَنِي، وَإِذَا عَثَرْتُ قَوَّمْتَنِي، وَإِذَا مَرِضْتُ شَفَيْتَنِي، وَإِذَا دَعَوْتُ أَجَبْتَنِي، يَا سَيِّدِي ارْضَ عَنِّي فَقَدْ أَرْضَيْتَنِي".** (الصدوق، دون تاريخ، صفحة 134/1)

يقوم النصّ الإمامي بنقلِ مركز القوة من السلطة الزمنية الزائلة إلى المرجعية الإلهية، إذ إنّ الإمام (عليه السلام) لا يمتلك القوة المادية التي تقابل قمع السلطة وبطشها، لكنه يمتلك السلطة الروحية المتصلة بالله

وذلك استنادًا إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾. (الطلاق: 3)

وقوله تعالى: ﴿أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾. (غافر: 44)

فالدعاء في هذا الموقف يؤدي وظيفة تفريغ الأزمة؛ لأن الإمام المُحاصر سياسيًا يستعيد قوّته النفسية عبر الدعاء فيتحول إلى بديلٍ عن القمع السياسيّ، كما إنّ استعمال الإمام (عليه السلام) دعاء جدّه الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) يؤكد للمتلقي أنّ أئمة أهل البيت (عليهم السلام) سلسلة متصلة تتوارث العلم والولاية، فلغة الدعاء تكشف عن مقاومة ذات طابع عسكري وهو ما نلمسه في توظيف الأفعال (أُساور، أحاول، أصول، أنتصر)؛ إذ ينقل المعركة من مكانتها المعروفة بالعنف إلى الاستناد على الله تعالى، حيث يُعلن الإمام (عليه السلام) انتفاء قوة الرشيد بشكلٍ تام، كما أنّ استحضار الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) ذروة مقاومته الخليفة هو إعلان غير مُباشر عن الامتداد الشرعي للسلطة، فهو بمثابة استدعاء للحقّ المسلوب ممّا يُمثل تقويضًا لهيبة الخليفة أمام حاشيته.

وقوله: " وعَنِ الْعِبَادِ بِلُطفِ مَا خَوَلْتَنِي أَغْنَيْتَنِي" (الصدوق، دون تاريخ، صفحة 134/1)، موجهًا للخليفة العباسي الذي يرى نفسه أنّه ظل الله في الأرض، فيسقط بذلك منتّه الزائفة وألقابه المصطنعة.

والشيخ الصدوق (قدس سره) عبر تدوين هذا الدعاء يُرسخ العلو الأخلاقي والروحي لسلسلة آل البيت (عليهم السلام) مقابل الانهزام الأخلاقي للسلطة العباسية، كما يُمثل هذا الدعاء أداةً لامتصاص الصدمات السياسية التي تعرضوا لها اتباع آل البيت (عليهم السلام)، كما يُعد رسالة توجيهية لمجتمع عصره مفادها أنّ المواجهة لا تكون دائمًا بالسيف، بل بالتفويض الإلهي الذي يسلب إرادة المستبد.

وعندما عزم الخليفة موسى بن المهدي على قتل الإمام الكاظم (عليه السلام) رفع يده إلى السماء، قائلًا: **" اللّهُمّ كَمْ مِنْ عَدُو شَحَذَ لِي ظُبَةَ مُدْيَتِهِ، وَأَرْهَفَ لِي شَبَا حَدّهِ، وَدَافَ لِي قَوَاتِلَ سُمُومِهِ، وَلَمْ تَتَمْ عَنّي عَيْنُ حَرَاسَتِهِ، فَلَمّا رَأَيْتَ ضَعْفِي عَنِ احْتِمَالِ الْفَوَادِحِ وَعَجْزِي عَنْ مُلِمّاتِ الْجَوَائِحِ، صَرَفْتَ ذَلِكَ عَنّي بِحَوْلِكَ وَقُوَتِكَ لَا بِحَوْلِي وَقُوَتِي، فَأَلْقَيْتَهُ فِي الْحَفِيرِ الّذِي احْتَفَرَهُ لِي خَاتِباً مِمّا أَمّلَهُ فِي دُنْيَاهُ، مُتَبَاعِداً مِمّا رَجَاه فِي آخِرَتِهِ، فَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى ذَلِكَ قَدْرَ اسْتِحْقَاقِكَ سَيّدِي".** (الصدوق، دون تاريخ، صفحة 1/ 136)

يكشف النصّ الإمامي الحال الذي كان يعيشه (عليه السلام) في ظلّ خلافة موسى بن المهدي، فبالنظر لعباراته المستعملة في الدعاء؛ إذ لا تُقرأ بوصفها مجرد استعارات بلاغية، بل هي كشف عن الأساليب القمعية المُستعملة ضد أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، وبناءً على ذلك يقوم النصّ بتجريد السلطة من وظيفتها الأمنية وتحويلها إلى عصابةٍ تترقب الأئمة (عليهم السلام)، كما إنّ رواية الإمام الرضا لدعاء أبيه (عليهم السلام) يضمر وحدة المصير التاريخي للأئمة (عليهم السلام)، فعندما أراد موسى بن المهدي قتل الإمام الكاظم (عليه السلام) جسديًا، سعى المأمون للتخلص من قدسيته عبر ولاية العهد، والشيخ الصدوق (قده) يُثبت أنّ الإمامة محمية من قبل الله تعالى مهما تعالت أيدي الظالمين.

"اللّهُمّ فَخُذْهُ بِعِزّتِكَ، وَافْلُلْ حَدّهُ عَنّي بِقُدْرَتِكَ، وَاجْعَلْ لَهُ شُغْلًا فِيمَا يَلِيهِ، وَعَجْزًا عَمّنْ يُنَاوِيهِ، اللّهُمّ وَأَعْدِنِي عَلَيْهِ عَدْوَى حَاضِرَةً تَكُونُ مِنْ غَيْظِي شِفَاءً وَمِنْ حَقّي عَلَيْهِ وَفَاءً، وَصِلِ اللّهُمّ دُعَائِي بِالْإِجَابَةِ، وَانْظِمْ شَكَايَتِي بِالتّغْيِيرِ، وَ عَرّفْهُ عَمّا قَلِيلٍ مَا وَعَدْتَ الظّالِمِينَ، وَعَرّفْنِي مَا وَعَدتَ فِي إِجَابَةِ الْمُضْطَرِينَ، إِنّكَ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وَالْمَنّ الْكَرِيمِ". (الصدوق، دون تاريخ، صفحة 1/ 136)

يعد هذا النص الاستغاثي المروي عن الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) وثيقةِ كشفٍ سياسيّ لنوايا الخليفة موسى بن المهدي تجاه الإمام الكاظم (عليه السلام)؛ حيث يحمل الدعاء طابعًا هجوميًا مضمرًا فعبارة افلل حده هي استعارة عسكرية واضحة تعني كسر سيف الظالم وتحطيم آلياته القمعية، أما قوله: " وَاجْعَلْ لَهُ شُغْلاً فِيمَا يَلِيهِ" (الصدوق، دون تاريخ، صفحة 1/ 136)، يوجه الدعاء نحو خلق أزمة داخلية في قلب السلطةالحاكمة لتنشغل عن مراقبة المعارضة العلوية؛ إذ تؤكد المصادر التاريخية بأنّه كان شديد الوطأة على المعارضة العلوية (الطبري، 1968م، صفحة 203/8)، فبينما كان الخليفة يتوعد الإمام بالقتل نشبت أحداث داخل قصره كعلاقته المتوترة مع أمه الخيزران التي استمرت حتى أمرت بقتله (الطبري، 1967م، صفحة 205/8)، وقوله (عليه السلام): " وَأَعْدِنِي عَلَيْهِ عَدْوَى حَاضِرَةً تَكُونُ مِنْ غَيْظِي شِفَاءً وَمِنْ حَقّي عَلَيْهِ وَفَاءً" (الصدوق، دون تاريخ، صفحة 1/ 136) يكشف مفهوم تفريغ الأزمة، فالاعتراف بالغيظ ليس ضعفًا، بل كشفًا للقهر الماديّ الذي تعاني منها الذات المقاومة وأتباعها، وهذا يتطابق مع قوله تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾. (التوبة: 14-15)

كما يقوم النص بتجريد السلطة من ألقابها الرسمية المزيفة بالطابع الديني، ويجعلها في إطار الظالمين. وبناءً على هذا يكون الشيخ الصدوق (قدس سره) قد حوّل الدعاء من سلاحٍ استغاثي خاص بالإمام (عليه السلام) إلى أداةٍ تحصين لموالي القَرن الرابع؛ حيث يصبح الدعاء طقسًا ضد أيّ سلطةٍ قمعية.

"لَمّا قبض الرشيد على موسى بن جعفر (عليه السلام) وهو عند رأس النبي (ﷺ) قائمًا يصلي، فقطع عليه صلاته و حُمِلَ وهو ويبكي ويقول: إليكَ أشكو يا رسولَ اللهِ مَا ألقى" (الصدوق، دون تاريخ، 143/1).

إنّ المألوف في تعبّد الأئمة (عليهم السلام) وتفريغهم النفسي هو مناجاة الله سبحانه، وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾. (يوسف: 86).

أما نصّ الإمام (عليه السلام) فيكشف التوظيف السياسي للاستغاثة؛ إذ يهدف النص إلى محاكمة الخليفة العباسي أمام مصدر شرعيتهم القائمة على قرابتهم من رسول الله (ﷺ)، وبهذا يُعَد الدعاء تمرير مضمر للمجتمع والتاريخ بأنّ السلطة التي تحكم باسم رسول الله (ﷺ) هي ذاتها تقبض على سبطه وتطع عبادته عند رأسه، وبهذا فقد حوّل النص الضعف الجسدي إلى هجومٍ رمزيّ يُجرّد السلطة الزمنية من ادعائاتها الدينية، فالشرعية الحقيقية ليست بيد السلطة القائمة، بل هي امتدادًا نبويًا سُلب من مستحقيه.

والشيخ الصدوق (قدس سره) لا ينتقي نصًا يُصرح بإدانة الخليفة بشكلٍ مباشر، بل يجعله معتديًا على الصلاة والمكان المقدس معًا، فتظهر السلطة ـ ضمنيًا ـ قوة تقتحم المقدس لمصالحها السياسية، وبهذا يغدو النص وثيقةً ثقافية لبيان مظلومية أهل البيت (عليهم السلام) لا عبر التصريح المباشر، بل عبر نصّ دعائي يجعل المتلقي يستنتج تلقائيًا قمع السلطة العباسية لأئمة أهل البيت (عليهم السلام).

ومن دعاء الإمام الرضا (عليه السلام): "سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الْخَلْقَ بِقُدْرَتِهِ، وَأَتْقَنَ مَا خَلَقَ بِحِكْمَتِهِ، وَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مِنْهُ مَوْضِعَهُ بِعِلْمِهِ، سُبْحَانَ مَنْ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ". (الصدوق، دون تاريخ، 188/1).

يُمثل هذا النص تحولًا في بلاغة الدعاء؛ إذ قُرأَتْ أدعية الإمام الكاظم (عليه السلام) كونها استغاثة المُراقب جسديًا، أمّا استغاثة الإمام الرضا (عليه السلام) فهي استغاثة المُحاصَر سياسيًا، فقوله (عليه السلام): "سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الْخَلْقَ بِقُدْرَتِهِ، وَأَتْقَنَ مَا خَلَقَ بِحِكْمَتِهِ، وَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مِنْهُ مَوْضِعَهُ" (الصدوق، دون تاريخ، 188/1) وتركيزه على الاتقان ووضع الأشياء موضعها هو نقدٌ مضمر لواقع السلطة القائم؛ باغتصابها الحقوق وتهميش مستحقي الخلافة، والنسق هنا يقوم بتوظيفِ الحكمة الإلهية كمعيارٍ لكشفِ عبث العباسيينَ في توزيع المناصب والأموال.

وقوله: " سُبْحَانَ مَنْ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ". (الصدوق، دون تاريخ، 188/1) يستحضر الرقابة الإلهية في البيئة العباسية التي تُدار بالوشايات والجواسيس والمؤامرات المبطنة، وبهذا المعنى يمارس الإمام (عليه السلام) تفريغًا للأزمة عبر الاحتماء بالله تعالى، فالظالم يملك الرقابة، لكن الإمام (عليه اسلام) يمتلك العين التي لا تنام عن تدبير أمره. والآية المباركة تؤكد ذلك: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾. (غافر: 19)

والشيخ الصدوق (قدس سره) يُثبت أنّ أئمة أهل البيت (عليهم السلام) هم حُرّاس التوحيد، وبهذا المعنى فقد حوّل الدعاء الاستغاثي إلى وثيقة يصون عبرها هوية الطائفة ويحميها من الخطر.

وقد دعا الإمام الرضا (عليه السلام) عند الطواف، قائلًا: "يَا اللهُ يَا وَلِيَّ عَافِيَةِ، وَخَالِقَ الْعَافِيَةِ، وَرَازِقَ الْعَافِيَةِ، وَالْمُنْعِمَ بِالْعَافِيَةِ، وَالْمِنَّانَ بِالْعَافِيَةِ، وَالْمُتَفَضِّلَ بِالْعَافِيَةِ عَلَيَّ وَعَلَى جَمِيعِ خَلْقِكَ، يَا رَحْمَانَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَرَحِيمَهُمَا، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَارْزُقْنَا الْعَافِيَةَ، وَدَوَامَ الْعَافِيَةِ، وَتَمَامَ الْعَافِيَةِ، وَشُكْرَ الْعَافِيَةِ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ". (الصدوق، دون تاريخ، الصفحات 2/ 25 ـ 26)

إنّ تكرار الإمام (عليه السلام) مفردة (العافية) يستدعي حضور نقيضها في واقعِهِ، إذ إنّ الإمام (عليه السلام) لا يدعو من فراغٍ؛ لأنّ النص هو ردّ فعل على واقعٍ مسكوت عنه، وهو بدوره يُجرّد السلطة العباسية من قدرتها على توفير الأمان، فالنص يقول ضمنًا أنّ السلطة لا تمنع العافية، بل تصنع البلاء.

كما يلحظ أنّ الدعاء يرتدي عباءةً تعبدية متمثلة بالمناجاة والطواف لحمايتِهِ من الرقابة السياسية، حيث يتجه النص في ظاهره إلى السماء وفي باطنه يدين للسلطة العباسية.

وقوله (عليه السلام): " عَلَيَّ وَعَلَى جَمِيعِ خَلْقِكَ " (الصدوق، دون تاريخ، الصفحات 2/ 25 ـ 26) يُقدم نموذجًا للقيادة الروحية ـ ضمنًا ـ ويكشف أنانية السلطة؛ إذ لا يطلب العافية لنفسه فقط، بل يشمل الخلق أجمع وهو ما يُميز القائد الحق، والإمام (عليه السلام) في دعائه يتكئ على ما استحببه رسول الله (ﷺ)، إذ قيل أنّ رجلًا سأله: "يارسول الله، أيُّ الدّعاء أفضل؟ قال: تسألُ ربّك العفو والعافية في الدنيا والآخرة". (حنبل، 2001م، صفحة 304/19)، والشيخ الصدوق (قدس سره) يدوّن هذا الدعاء ليفرض على قارئ عصره أنْ يستحضر مظلومية الإمام الرضا (عليه السلام) وغدر السلطة العباسية، وبهذا المعنى يساهم المدون في بناء ذاكرة الموالين لأهل البيت (عليهم السلام) بجعل الاستغاثة طقسًا من طقوسها.

"لَمَّا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ مَا كَانَ وَقُتِلَ، دَخَلَ الْمَأْمُونُ إِلَى الرِّضَا (عليه السلام) يَبْكِي وَقَالَ لَهُ: هَذَا وَقْتُ حَاجَتِي إِلَيْكَ يَا أَبَا الْحَسَنِ، فَتَنْظُرُ فِي الْأَمْرِ وَتُعِينُنِي، فَقَالَ لَهُ: ((عَلَيْكَ التَّدْبِيرُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَلَيْنَا الدُّعَاءُ))". (الصدوق، دون تاريخ، صفحة 273/2)

يكشف المشهد الحواري ـ الذي أعقبَ حادثة مقتل الوزير عام 202هـ في سرخس (الطبري، 1967م، صفحة 565/8) الشخصية المزدوجة للمأمون بين حاجته للفضل بن سهل ورغبته في إرضاء بني العباس، فقول المأمون: " هَذَا وَقْتُ حَاجَتِي إِلَيْكَ... فَتَنْظُرُ فِي الْأَمْرِ وَتُعِينُنِي" (الصدوق، دون تاريخ، صفحة 273/2) يضمر وضع المأمون النفسي وهو يعيش أزمة شرعية ومصداقية؛ إذ يحاول الاستعانة بقدسية الإمام الرضا (عليه السلام) لامتصاص غضب المجتمع إزاء أفعال، وبناءً على ذلك فإنّ تصرّف الخليفة يهدف إلى توريط الإمام (عليه السلام) وضمّه شريكًا بجرائم السلطة.

وقول الإمام (عليه السلام): "عَلَيْكَ التَّدْبِيرُ" (الصدوق، دون تاريخ، صفحة 273/2) يضمر المكائد وجرائم القتل، وبهذا فقد جعل الدعاء أداةً للإنسحاب من مكائده فالإمام (عليه السلام) لم يدعُ، لكنه استعمل مصطلح الدعاء كدرعٍ لصدِّ محاولات السلطة في تدنيس المقدس، كما إنّ الشيخ الصدوق (قده) يُضمر نيةً دفاعية لإثبات أنّ ولاية العهد كانت إجبارية وشكلية وأنّ الإمام (عليه السلام) كان مُدركًا تمامًا لمكرِ السلطة ورفض التدخل في تدبيرهم السياسي.

ومن أدعية الإمام الرضا (عليه السلام)، قوله: "الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي حَفِظَ مِنَّا مَا ضَيَّعَ النَّاسُ، وَرَفَعَ مِنَّا مَا وَضَعُوهُ حَتَّى قَدْ لُعِنَّا عَلَى مَنَابِرِ الْكُفْرِ ثَمَانِينَ عَاماً، وَكُتِمَتْ فَضَائِلُنَا، وَبُدِّلَتِ الْأَمْوَالُ فِي الْكَذِبِ عَلَيْنَا، وَاللهُ تَعَالَى يَأْبَى لَنَا إِلَّا أَنْ يُعْلِيَ ذِكْرَنَا، وَيُبَيِّنَ فَضْلَنَا، وَاللهِ مَا هَذَا بِنَا وَإِنَّمَا هُوَ بِرَسُولِ اللهِ (ﷺ) وَ قَرَابَتِنَا مِنْهُ، حَتَّى صَارَ أَمْرُنَا وَمَا يُرْوَى عَنْهُ أَنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدَنَا مِنْ أَعْظَمِ آيَاتِهِ وَدَلَالاتِ نُبُوَّتِهِ". (الصدوق، دون تاريخ، صفحة 2/ 274)

إنّ النص الإمامي لا يستغيث من أزمةٍ آنية، بل أزمات تاريخية عبر صيغة الحمد، فيمثل المقطع الاستهلالي خطابًا مُضادًا يوظف الدعاء أداةً لمحاكمة التاريخ، فقوله: " حَفِظَ مِنَّا مَا ضَيَّعَ النَّاسُ، وَرَفَعَ مِنَّا مَا وَضَعُوهُ" (الصدوق، دون تاريخ، 2/ 274) يؤكد أنّ السلطة السياسية مُعرّضة للضياع والتهلكة؛ لأنها خاضعة لمعايير القوة المادية، أما السلطة الروحية فهي محروسة بعنايةِ الله الغيبية.

ويستعرض النصّ آليات الهيمنة التي قامت بها السلطة الأموية ومابعدها، فعندما عُرِفتْ المنابر أنّها للتوجيهات الوعظية وبث السلام بين الناس، حوّلها الأمويونَ لسلطةٍ إعلاميةٍ مُختصة بشتمِ الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، إذ إنّ معاوية "أمرَ الناس بالعراق والشام وغيرهما بسبِّ عليّ (عليه السلام) والبراءة منه، وخطب بذلك على منابر الإسلام، وصار ذلك سُنة في أيامِ بني أمية إلى أنْ قامَ عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه فأزاله". (الحديد، 2007م، صفحة 2/ 258)

وبناءً على ذلك يضمر النص مقاومة أهل البيت (عليهم السلام) رغم تعرضهم للسبّ، القتل والغدر، وتفريغ الأزمات المختلفة عبر الاستعلاء بالاصطفاء الإلهي .

أما قوله (عليه السلام): " وَبُدِّلَتِ الْأَمْوَالُ فِي الْكَذِبِ عَلَيْنَا" (الصدوق، دون تاريخ، صفحة 2/ 274) يُمرر ـ ضمنًا ـ حقيقة السلطات المتتابعة التي تشتري شرعيتها ـ بالحطّ من آل البيت (عليهم السلام) ومحاولة التخلص منهم ـ بالمال .

والشيخ الصدوق (قدس سره) يُثبت أنّ ما ينعم به عصر هو من إعلاء وبيان الفضل بعد سنوات من الكتمان هو مصداق واقعي لدعاء الإمام الرضا (عليه السلام) وبقاء إلهي فشلت السلطات أن تطمسَهُ بأموالِها.

عندما رُفِعَ إلى المأمون أنّ الإمام الرضا (عليه السلام) يعقد مجالس العلم والناس يفتتنون بعلمه، أمر بطرد الناس وإحضار الإمام (عليه السلام) إليه، فدعا (عليه السلام) قائلًا: **"اللَّهُمَّ يَاذَا الْقُدْرَةِ الْجَامِعَةِ، وَالرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ، وَالْمِنَنِ الْمُتَتَابِعَةِ، وَالْآلَاءِ الْمُتَوَالِيَةِ، وَالْأَيَادِي الْجَمِيلَةِ، وَالْمَوَاهِبِ الْجَزِيلَةِ. يَا مَنْ لَا يُوصَفُ بِتَمْثِيلٍ، وَلَا يُمَثَّلُ بِنَظِيرٍ، وَلَا يُغْلَبُ بِظَهِيرٍ".** (الصدوق، دون تاريخ، الصفحات 288/2 - 289).

إنّ المراقبة المستمرة للإمام (عليه السلام) من قبل السلطة تكشف عن رعبها من علم الإمام (عليه السلام) وجذب الناس إليه، الأمر الذي يؤدي إلى إزدياد المعارضة بكثرة الخصم، كما إنّ تصرف الخليفة هو محاولة منه للتقليل من خصمه أمام تابعيه وذلك بتمرير رسالة مفادها أنّ الذي جلوسكم مع مولاكم لا يتمّ إلّا بأمري وهذا مايُسميه بيير بورديو بالعنف الرمزي، عبر فرض سلطته على المستضعفينَ، فيواجهه الإمام (عليه السلام) بالدعاء لتقويض قدرته السلطوية ـ وهي استعماله الحرس والقمع لتفريق الناس ـ مقابل قدرة الله تعالى والنص بذلك يفرغ أزمة الهجوم السلطوي عبر اللجوء إلى قوةٍ لا تُقهر وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾. (فاطر:44)

" يَا مَنْ خَلَقَ فَرَزَقَ، وَأَلْهَمَ فَأَنْطَقَ، وَابْتَدَعَ فَشَرَعَ، وَعَلَا فَارْتَفَعَ، وَقَدَّرَ فَأَحْسَنَ، وَ صَوَّرَ فَأَتْقَنَ، وَاحْتَجَّ فَأَبْلَغَ، وَأَنْعَمَ فَأَسْبَغَ، وَأَعْطَى فَأَجْزَلَ. يَا مَنْ سَمَا فِي الْعِزِّ فَفَاقَ خَوَاطِفَ الْأَبْصَارِ، وَدَنَا فِي اللُّطْفِ فَجَازَ هَوَاجِسَ الْأَفْكَارِ. يَا مَنْ تَفَرَّدَ بِالْمُلْكِ فَلَا نِدَّ لَهُ فِي مَلَكُوتِ سُلْطَانِهِ، وَتَوَحَّدَ بِالْكِبْرِيَاءِ فَلَا ضِدَّ لَهُ فِي جَبَرُوتِ شَأْنِهِ. يَا مَنْ حَارَتْ فِي كِبْرِيَاءِ هَيْبَتِهِ دَقَائِقُ لَطَائِفِ الْأَوْهَامِ، وَحَسَرَتْ دُونَ إِدْرَاكِ عَظَمَتِهِ خَطَائِفُ أَبْصَارِ الْأَنَامِ". (الصدوق، دون تاريخ، الصفحات 288/2 - 289)

إنّ الأزمة السياسية التي مرَّ بها الإمام الرضا (عليه السلام) مع السلطة العباسية كانت أزمة احتواء؛ إذ أرادت السلطة أن تُشركه شكليًا إلى سياستها، ومع ذلك ترى أنّها صاحبة الفضل في ردِّ الحقوقِ لمستحقيها، بينما الإمام (عليه السلام) عبر النصّ الدعائي يمرر مضمر مفاده أنّ منزلة الأئمة (عليهم السلام) وسلطتهم المعرفية إنّما هي من اللهِ تعالى وليست مِنّة من الخليفة.

وقوله: " يَا مَنْ سَمَا فِي الْعِزِّ فَفَاقَ خَوَاطِفَ الْأَبْصَارِ، وَدَنَا فِي اللُّطْفِ فَجَازَ هَوَاجِسَ الْأَفْكَارِ" (الصدوق، دون تاريخ، الصفحات 288/2 ـ 289) يكشف معاناة الذات المقاومة من رقابة السلطة وجواسيسها فيثبت النص إنّ كل الرقابات التي يضعوها لا تساوي شيئًا أمام تفرد الخالق وتفرّده، فيؤكده الله بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. (الأنعام: 103)، إذ يؤكد أنّ المؤمنين مُحصنين من الله تعالى مهما فرضت عليهم السلطات قمعهم.

والشيخ الصدوق (قدس سره) يوظف أدعية الإمام الرضا (عليه السلام) كأداةٍ أيديولوجية لإثبات تنزيه المذهب من إدعاءات الفرق الأخرى.

"يَا عَالِمَ خَطَرَاتِ قُلُوبِ الْعَالَمِينَ، وَشَاهِدَ لَحَظَاتِ أَبْصَارِ النَّاظِرِينَ، يَا مَنْ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِهَيْبَتِهِ، وَخَضَعَتِ الرِّقَابُ لِجَلَالَتِهِ، وَوَجِلَتِ الْقُلُوبُ مِنْ خِيفَتِهِ، وَارْتَعَدَتِ الْفَرَائِصُ مِنْ فَرَقِهِ، يَا بَدِيءُ يَا بَدِيعُ، يَا قَوِيُّ يَا مَنِيعُ، يَا عَلِيُّ يَا رَفِيعُ، صَلِّ عَلَى مَنْ شَرَّفْتَ الصَّلَاةَ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ، وَانْتَقِمْ لِي مِمَّنْ ظَلَمَنِي وَاسْتَخَفَّ بِي، وَطَرَدَ الشِّيعَةَ عَنْ بَابِي، وَأَذِقْهُ مَرَارَةَ الذُّلِّ وَ الْهَوَانِ كَمَا أَذَاقَنِيهَا، وَاجْعَلْهُ طَرِيدَ الْأَرْجَاسِ، وَشَرِيدَ الْأَنْجَاسِ". (الصدوق، دون تاريخ، الصفحات 288/2 ـ 289)

إنّ نداء الإمام (عليه السلام) لا يقفْ عند حدودِ الإعلان بعلمِ الله المُطلق، بل هو كشف لزيف السلطة؛ إذ يعلن رفضه ضمنًا للتمثيلِ السياسيّ الساعي إلى تشويهِ قدسية الإمام (عليه السلام) أمام تابعيه، حيث يكشف النوايا السلطوية الخفيّة التي تضمر سحب قدسية الإمام (عليه السلام).

فقوله (عليه السلام): "وَانْتَقِمْ لِي مِمَّنْ ظَلَمَنِي وَاسْتَخَفَّ بِي، وَطَرَدَ الشِّيعَةَ عَنْ بَابِي" (الصدوق، دون تاريخ، الصفحات 288/2 ـ 289) يكشف عن اضطرار المأمون إلى لجوئه لسياسة الاستخفاف عبر محاولته البائسة بتجريدِ الإمام (عليه السلام) من قدسيته وتحويله إلى وليّ عهدٍ يأتمر بأمر البلاط، وهذا الفعل يتماشى مع قوله تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾. (الزخرف: 54)

كما يضمر النص سعيه في تضعيف القوة المادية للخليفة التي كان يمارسها السيف العباسي، فالنص الإمامي يؤكد أنّ السلطة التي تُخضع الناس بالخوف هي نفسها خاضعة أمام الجبروت الإلهي، ممّا يفرغ هيبة الظالم في نفس الذات المقاومة، كما يقوّض السلطة العباسية التي استمدتْ شرعيتها من انتمائها لقرابة نبي الله (ﷺ) لتدّعي الطهارة، وبهذا المعنى يسلبهم النص هذه الشرعية الزائفة ، وتتجلى قصدية الشيخ الصدوق (قده) في تقويضِ أيّ أخبارٍ تأريخية تصور علاقة الإمام الرضا (عليه السلام) بالخليفة على أنّها شراكة سياسية بسبب توليه ولاية العهد شكليًا، إذ يُثبت للأجيال أنّ العلاقة كانت علاقة ظالم مع مقاوم بعيدة عن المشاركة والتودد.

الخاتمة:

إنّ الدعاء عند الأئمة (عليهم السلام) ـ وفي لحظات الأزمات التاريخية العصيبة ـ يغادر وظيفته الطقسية، ليتحول إلى نصٍّ ثقافيّ مُضاد يُفكك أنساق الهيمنة السلطوية ويقوّض مكانة السلطة؛ إذ كشفَتْ الدراسة أنّ الدعاء في كتاب عيون أخبار الرضا (عليه السلام) وظِّفَ أداةً لفضح السلطة، فبينما كانت السلطة العباسية تستدعي ألقابًا مقدّسة للخليفة (خليفة الله في الأرض، أمير المؤمنين)، أكد النص الدعائي أن العلم اللدني و المركزية المقدسة هي بيد الإمام المظلوم لا السلطة المنتصرة عسكريًا. وعليه، لم يكنْ الدعاء في كتاب عيون أخبار الرضا مجرد طقس للتعبد، بل كان سلاحًا للمقاومة يلجأ إليها المُستضعف لاستعادةِ توازنها الوجودي ونقل مظلوميته من عدالة الأرض الفانية إلى عدالة السماء المطلقة.

المصادر:

القرآن الكريم.
أ. م. د خالد حوير الشمس. (2021م). *النسق الثقافي و أثره في البناء النصي النثري الصوفي*. (الطبعة 1). عمان: مركز الكتاب الأكاديمي.
ابن أبي الحديد. (2007 م). *شرح نهج البلاغة*. (الطبعة1). تح: محمد ابراهيم، بيروت: الأميرة للطباعة والنشر.
أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّيّ. (دون تاريخ). *عيون أخبار الرضا*. (الطبعة2). تحقيق: قسم الدراسات الحديثية ـ مجمع البحوث الإسلامية. إيران: مؤسسة الطبع والنشر التابعة للآستانة الرضوية المقدسة.
أبو جعفر. محمد بن جرير الطبري. (1967م). *تاريخ الطبري*. (الطبعة2). تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر: دار المعارف.

أبو سليمان حمد الخطابي الحافظ. (1992م). *شأن الدعاء*. (الطبعة3). تحقيق: أحمد يوسف الدقاق. بيروت: دار الثقافة العربية.

الإمام أحمد بن حنبل. (2001م). *مسند الإمام أحمد بن حنبل*. (الطبعة1). تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون. مؤسسة الرسالة.

الإمام السيد محسن الأمين. (دون تاريخ). *أعيان الشيعة*. (دون طبعة). تحقيق: حسن الأمين. بيروت: دار المعارف للمطبوعات.

إميل دوركهايم. (2019م). *الأشكال الأولية للحياة الدينية: المنظومة الطوطمية في استراليا*. (الطبعة1). ترجمة: رندة بعث. بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

بيير بورديو. (2007م). *الرمز والسلطة*. (الطبعة3). ترجمة: عبدالسلام بنعبد العالي. الدارالبيضاء: دار بوتقال للنشر.

د. سمير سعيد حجازي. (2001م). *قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر*. (الطبعة 1). القاهرة: دار الآفاق العربية.

د. عبدالله الغذامي. د. عبدالنبي اصطيف. (2004م). *نقد ثقافي أم نقد أدبي؟*. (الطبعة 1). دمشق: دار الفكر.

الشيخ محمد باقر المجلسي. (دون تاريخ). *بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمة الأطهار*. (دون طبعة). قم: مؤسسة إحياء الكتب الإسلامية.

عادل نويهض. (1983م)، *معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر*. (الطبعة1). قدّم له: مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد. بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر.

عبدالحسين دَسْتغيب، (دون تاريخ)، *الدعاء*، (الطبعة2)، ترجمة: لجنة الهدى، مؤسسة المنار.

عبدالله الغذامي. (2005 م). *النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية*. (الطبعة3). بيروت: المركز الثقافي العربي.

عمر بلخير. (2013م). *تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية*. (الطبعة2). المدينة الجديدة: دار الأمل.

كاترين كيربرات- أوريكيوني. (2008م). *المضمر*. (الطبعة1). ترجمة: ريتا خاطر. بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

ميشيل فوكو. (دون تاريخ). *نظام الخطاب*. (دون طبعة). ترجمة: د.محمد سبيلا. مصر: دار التنوير.

نبيلة عبدالمنعم داؤد. (1968م). *نشأة الشيعة الإمامية*. (دون طبعة). بغداد: مطبعة الرشاد.